

تفسير ابن كثير

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ^ص لَهُمْ قُلُوبٌ ^ج لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ ^ج لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ ^ج لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

يقول تعالى : (ولقد ذرأنا) أي : خلقنا وجعلنا (لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أي :

هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلائق ، علم ما هم

عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض

بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض

بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء " وفي صحيح مسلم أيضا ، من حديث عائشة

بنت طلحة ، عن خالتها عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، أنها قالت : دعي رسول

الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له ،

عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال [رسول الله صلى الله عليه

وسلم] أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله خلق الجنة ، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب

آبائهم ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم "وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود [رضي الله عنه] ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد " .وتقدم أن الله [تعالى] لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، قال : " هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي " .والأحاديث في هذا كثيرة ، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها .وقوله تعالى : (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) يعني : ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله [سببا للهداية] كما قال تعالى : (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله [وحق بهم ما كانوا به يستهزئون]) [الأحقاف : 26] وقال تعالى : (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) [البقرة : 18] هذا في حق المنافقين ، وقال في حق الكافرين : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [البقرة : 171] ولم يكونوا صما بكمما عميا إلا عن الهدى ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال : 23] ، وقال : (

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ([الحج : 46] ، وقال)
ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل
ويحسبون أنهم مهتدون ([الزخرف : 36 ، 37] .وقوله تعالى : (أولئك كالأنعام) أي
: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى ، كالأنعام السارحة التي لا
تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى :)
ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء [صم بكم عمي] ([
البقرة : 171] أي : ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها
راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول ؛ ولهذا قال في هؤلاء : (بل هم أضل) أي
: من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها ، وإن لم تفقه
كلامه ، بخلاف هؤلاء ؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ،
بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع
الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر ،
كانت الدواب أتم منه ؛ ولهذا قال تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم

الغافلون (